الحج ميثاق عهد مع الله ومسؤولية تجاه الإنسان

الأمير الحسن بن طلال
رئيس المعهد الملكي للدراسات الدينية

الحج سفر استثنائي إلى جهة استثنائية، في زمن ومكان خاصين. هو في اللغة القصد مطلقا، وقيل هو: القصد المُعظم. ما يجعله لا كسائر أنواع السفر وجهات القصد التي تكون لغاية الرزق أو المتعة أو السلطة، أي سفر وقصد دنيوي يتعلق بضرورات البقاء وتحصيل القوة أو المتعة أو المجد. أما الحج فهو سفر التخلي عن الرغائب، ورحلة اليقظة من الغفلة، وسيرة تصويب الوجهة بعد اضطرابها أو ضياعها، لتبدأ معها وبها رحلة المقصد الأعظم إلى أصل الأصول، وبداية البدايات، وأقصى المعاني ونهاية الغايات.

لهذا عدّ الحج في الحديث عن النبي جهادا، بل أفضل الجهاد، لما فيه من تعب جسد ومكابدة نفس وتوق روح. واعتبر محطة يتوقف فيها الزمن الخارجي، ليبدأ زمن آخر، زمن الاتصال والعروج والتوق والعشق الإلهي، أي زمن الوجود الإنساني في سعيه لاستعادة حقيقته الأصيلة، وتنقية معناها من سموم الزيف والوهم والسقوط. ما يجعل الحج ولادة جديدة وبعثا جديدا لحياة إنسانية متدفقة ومتجددة. ولهذا ورد في الحديث الشريف أن الحج يهدم ما قبله، وأن من حج بلا رفث ولا فسوق عاد كما ولدته أمه.

بهذا فإن الحج فعل تجدد، فيض حياة، عودة الذات إلى ذاتها بقدر ما هي عودة إلى الله، لتستعيد نقاءها وشفافيتها بعد أن خالطها دنس التكبر والاستعلاء، ولوثة الظلم، وخبث الخطايا. فالحج رحلة إلى الآخرة في الدنيا لكن لأغراض الدنيا وإصلاحها وتأكيد استقامتها وإخراج أفضل ما فيها. ما يجعل الحج يتجاوز غرض الفرد المؤمن في الاستغفار والأجر ونيل الثواب ودخول الجنة، بل هو مشروع حياة فائضة وتواصل إنساني على قاعدة خلقية وعقلية معا.

ولهذا لم يخاطب القرآن في تكليف الحج أفرادا منفصلين، بل خاطبهم بصيغ الجمع، مثل قوله تعالى: "وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا"، "وأتموا الحج والعمرة"، "ولله على الناس حج البيت..". وخطاب الجمع لأداء فعل في زمان ومكان محددين، يستولد القناعة بأن مقصد الحج ليس تكليفا خاصا أو جزئيا، أو مجرد شعيرة يمارسها الفرد لوحده، بل يؤكد أن الغرض إيجاد مشهد إنساني كوني، وبث صور خلقية وتضامنية تلامس الأسرة البشرية كلها. فتجد القرآن الكريم مثلا، يربط الحج بشهادة المنافع المتأتية منه: "وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ". فكأن منافع الناس ثمار مباشرة يجنيها الإنسان من فعل الحج. وهي منافع لا تقتصر على المنافع المادية الجزئية أو الخاصة، بل تتعداها لما يطال منافع البشرية جمعاء في جميع صور وجودها وتفاعلاتها ومتحداتها ونشاطها.

من هنا يعطيك الحج مشهدا إنسانيا آخّاذا: في وقوف الناس سواسية أمام الله في ألوانهم وأعراقهم وطبقاتهم المتعددة. في التلبية المتكررة لتكون العلاقة مع الله علاقة ميثاق وعهد لا علاقة اصطفاء وتفضيل وحصر، أي علاقة مسؤولية لا علاقة انتفاع خاص. فالمسؤولية أمام الله هي عين المسؤولية تجاه خلق الله، والوفاء الأمين للميثاق مع الله هو عين الوفاء لكل أفراد البشر في حفظ حياتهم وكرامتهم وإنسانيتهم وحريتهم.

الحج حدث يحمل إمكانات أبعد من أن يكون أداء تكليف فرديا، وهو قابل أن يستثمر لتتخذ الأمة الإسلامية شخصيتها وموقعها ومكانتها

وقد ربط القرآن الحج بالأمان، بقوله تعالى: "من دخله (مقام إبراهيم) كان آمنا"، وهو الصفة، أي الأمان، التي يطمح إليها كل فرد وكل مجتمع. فهو الشرط الأول للعبادة الصادقة والخالية من الإكراهات لكون الدوافع الذاتية والرغبة الجامحة هي البواعث العميقة والحرة للوصول إلى الله. وهو، أي الأمان، شرط استمرارية البشرية وحفظها من الفناء، وهو أساس التواصل الإنساني الذي يقي البشرية سوء الخيانة ووساوس الخوف، ويمثل حماية ووقاية من أي تعسف أو سلطة ظالمة.

بل إن الأمان مقدّمة ضرورية للحرية الإنسانية، لكي يُعبِّر الإنسان عن قناعاته وآرائه من دون عواقب وتبعات. وفي ذلك دليل على أن الحج مؤتمر بشري على أرضية الأمن والسلم، قصد منه التفاعل الحيوي بين الحجاج، وأن يكون محطة سنوية يتداول الناس فيها أمورهم بحرية ويناقشون قضاياهم، ويولدون رؤى وأفكارا واستراتيجيات متجددة، بعيدا عن أي تعسف أو تحكم أو حتى تسطيح لوظيفة الحج ومقصده العميق وغايته البعيدة. هذا يجعل الحج الآمن مدخلا للسلم، والأرضية التي تتحرك فوقها جميع صور التواصل الإنساني، وبداية أولى لإزالة موجبات القطيعة وأسباب سوء الفهم وتبديد ادعاءات التطرف وإسقاط كل تهم الإسلام زورا بالإرهاب.

من هنا تتبين أهمية اعتماد الشورى في الحج. فالشورى سمة جوهرية للأمة الإسلامية، وخلفية تواصل بين المسلمين يتداولون فيها قضاياهم بشكل مفتوح وحر. ما يجعل الحج محطة لا لأداء الشعائر فحسب، بل محطة سنوية لتوليد قناعات مشتركة وبلورة تفاهمات وبناء سياسات حول قضايا مصيرية تطال الواقع العالمي ومصالح المسلمين وحقوقهم، وفضاء مفعما بالإيمان والتسامح لحل خلافات المسلمين وصراعاتهم وتناقضاتهم.

الحج مشهد كثرة بعين الوحدة، ووحدة بعين الكثرة. بمعنى أن الحج حدث يحمل إمكانات أبعد من أن يكون أداء تكليف فرديا، وهو قابل أن يستثمر لتتخذ الأمة الإسلامية شخصيتها وموقعها ومكانتها، لا بالمعنى الوجداني أو العاطفي فحسب، بل تتخذ حالة تكامل بين مكوناتها، وشكل انتظام وتعاضد بين مؤسساتها ونظمها، وحالة حضور فاعل يخرجها من حالة اللاوزن والخفة ولا مبالاة المجتمع الدولي تجاه مصالح شعوبها وقدسية رموزها.

هذا يجعلنا، وبألم شديد، نستحضر قضية القدس، التي لم نعتبرها يوما ملكا للمسلمين، بقدر ما هي واحة لقاء إنساني، ملتقى القداسات وتعايشها، محطة تعددية لا مكان فيها للحصرية والاستبعاد. بيد أن القدس باتت ضحية سياسات الجنون ولامبالاة العالم من جهة، وغياب الموقف والسياسة الفعلية والفاعلة من المؤمنين بقضية القدس، من جهة أخرى. حيث غلبت حسابات المصالح على مقتضيات المسؤولية، وتبدد المشهد الكلي لصالح التقديرات الجزئية، وبتنا نتعامل مع القدس بصفتها قضية سياسية صرفة، في حين أنها تمثل في عالمنا المعاصر قضية أخلاقية تختبر صدقية إنصاف العالم للحقوق المغتصبة، وترمز إلى قدسية شديدة التكثيف، تم تحويلها إلى اصطفائية عدائية وإقصائية.

لعل النداء الأقوى في الحج هو براءة الله ورسوله من المشركين. وهي براءة لا تنحصر بالبراءة من الشرك بالله، بل بالسلوك الأخلاقي الذي اتسم به سلوك مشركي قريش. ولهذا كانت البراءة في الآية من المشركين أنفسهم لا من شركهم فقط، لما ينطوي عليه سلوك المشركين في زمانهم من خسة وضعة أخلاقية. ما يجعل البراءة في الحج، براءة أخلاقية من كل من يحط من القيمة الإنسانية وقدرها. فمعركة الرسالة الإسلامية مع قريش لم تكن عقائدية بقدر ما كانت تتعلق بالمستوى الخلقي الذي وصلت إليه وضعية مكة قبل النبوة وفي زمن الدعوة النبوية. وهو مستوى وصفه جعفر ابن أبي طالب أمام ملك الحبشة بقوله: "كنّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القويّ منا الضعيف.. فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه دعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام".

مشروع الإسلام هو مشروع توحيد لله، لكن لا عبر الأمكنة المنعزلة والزوايا المعتمة، بل في الفضاء الواسع والأماكن الرحبة التي يملؤها ويخلقها الوجود الآدمي الذي خلقه الله على صورته. ما يجعل كمال توحيد الله موازيا للكمال الإنساني، وشمولَ عبادته وطاعته ارتقاءً بالإنسانية إلى أرقى مدارك وجودها وأخصب صور حياتها. التوحيد مشروع حياة للبشرية جمعاء، وفق قوله تعالى: "استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم". فالإحياء بعث لكامل طاقة الحياة وطرد لكل عوامل فنائها وانحطاطها وخستها.

بهذا فإن كل حفظ للحياة وحرص على مقتضيات العيش الإنساني الكريم، هو من مقاصد التوحيد وغاياته. ما يعني أن العمل للإسلام هو عمل لصالح الإنسان نفسه، وكل تكليف أو تشريع ديني يحتاج إلى أن يتخذ صفة شمولية وكونية، لا بالمعنى الذي يقصده المتطرفون، بل بمعنى أنسنة تشريعاتنا وعباداتنا، بحيث تترسخ فضائلها في كل المعمورة، وتتوزع منافعها على جميع أفراد البشرية، وتكون قواعد الحب والإخاء بين البشر مظاهر تحققها وفعليتها.

وفي هذا السياق، أجدد الدعوة التي أطلقتها منذ ثلاثين سنة ونيّف، ولم أتوقف عن الدعوة إليها حتى يومنا هذا، إلى إنشاء المؤسسة العالمية للزكاة والتكافل، لتحقيق الأهداف الكونية لأخلاقيات الزكاة والتكافل، إيمانًا منا بأنّ الدورَ الذي تقومُ به الزكاةُ سيسهم بشكل فعال في القضاء على صُوَر الحاجةِ والفقر، ويرفع البشرية إلى وضعية تضامن أرقى ونظام علاقات مستقرة، ليس في العالم الإسلامي فحسب، بل في العالم أجمَع.

الحج صورة تفاعل إنساني عابرة للحدود ومخترقة للحواجز الطبيعية والمصطنعة، حذار من تسييسها أو تضييق فضائلها أو تحويلها إلى شكلانية فارغة. هو محطة سنوية للتبصر والخروج من غفلة النسيان أو إغواءات الأنانية وفتنتها، وفرصة غوص عميق للذات داخل ذاتها، وملتقى آمن وحر للناس الساعين من كل فج عميق، وعلامة ميثاق قديم بين الله وخلقه، لتجديد العهد مع الله وتحمل أمانة المسؤولية تجاه الإنسان.

رسائل سلام

سقف عال في رئاسية تونس بعد الباجي قائد السبسي

طارق القيزاني
صحافي تونسي

منصب الرئيس على صلاحياته المحدودة في تونس ما بعد الثورة فإنه لا يزال مقترنا في الثقافة الشعبية التونسية بالمنصب الأعلى في هرم السلطة، وهو أمر ترسّخ مع ولاية الرئيس الراحل الباجي قائد السبسي القادم من المدرسة البورقيبية، وتأكد هذا أيضا بعد وفاته.

أخطأ واضعو النظام السياسي من الأغلبية الحاكمة في تونس في تقدير رمزية المنصب مع تبنيهم للنظام البرلماني بعد ثورة 2011. وكان في اعتقاد الحكام الجدد أن الانقلاب على النظام الرئاسي سيكون كافيا وحده لقبر الاستبداد والتمهيد لهيمنة البرلمان على الحياة السياسية وصناعة القرار. لكن الموازين السياسية في الشارع التونسي ظلت وفية للترتيب الهرمي القديم للسلطة الذي ظل سائدا منذ بناء دولة الاستقلال.

قبل وفاة قائد السبسي، طيلة فترة حكمه وحتى أثناء تقلده لمنصب رئيس الوزراء في الحكومة الانتقالية التي نظمت أول انتخابات ديمقراطية بعد الثورة عام 2011 وسلمت الحكم للفائزين، كان تقييم أداء الرئيس الراحل والنبش في سجله القديم خبزا يوميا لدى خصومه والخبراء وحتى لدى محركي العرائس في البرامج التلفزيونية الساخرة.

الخلاف لا يزال قائما حتى اليوم بعد الوفاة لكن أيا كانت الآراء فإنه يجدر دائما طرح الأسئلة المهمة التالية: ماذا لو أن انتخابات 2011 الأولى بعد الثورة لم تنجح؟ وماذا لو أن السبسي لم يؤسس حركة نداء تونس في 2012 وترك الساحة للإسلاميين في ذروة هيمنتهم على الحكم؟ كان الوضع في تونس اليوم سيكون مختلفا بلا شك.

دستور 2014 أراد أن يعيد تعريف الرئيس في الجمهورية الثانية ويحصر أدواره داخل جدران القصر الرئاسي وفي السياسة الخارجية والتعيينات الهامة في مؤسسات الدولة علاوة على مهامه التقليدية زمن الحرب والسلم في مقابل صلاحيات واسعة لرئيس الحكومة الذي تعينه الأغلبية البرلمانية. فهل كان هذا الدستور فعلا كافيا لقيادة مرحلة انتقالية معقدة وبموازين قوى جديدة في السلطة.

الواقع أن خبرة الرئيس المخضرم كانت تأبى أن تحاصر بصلاحيات مقيّدة لذلك جاءت مبادرة الحكم التوافقي بين الخصوم ومبادرة حكومة الوحدة الوطنية والوساطة مع الشركاء الاجتماعيين، وآخرها قبل وفاته تحجيم نوايا البرلمان في توجيه مسار الانتخابات بقانون معدل ورفضه الإمضاء عليه.

الجنازة الوطنية في تفاصيلها ورمزيتها مثلت في نظر شركاء تونس دفعة جديدة للانتقال السياسي الصحي والسلمي وحلقة نجاح أخرى بعد انتخابات 2011 والحوار الوطني في 2013 وانتخابات 2014 برغم كل المطبات الاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها تونس.

والحقيقة أن موكب الجنازة مثّل في جانب آخر استفتاء جديدا ليس على شعبية الرئيس بين أنصاره والتونسيين عموما، ولكن تأكيدا أيضا لنتائج الصندوق في 2014 وهو استفتاء رمزي سيكون له أثر على انتخابات 2019. وهذا أمر فاجأ الخصوم ووضعهم في مأزق غير متوقع وقد يكون دفع البعض من القوى السياسية الكبرى إلى إعادة التفكير في تقديم مرشحين للرئاسية واللجوء إلى خيار التوافق حول مرشح بعينه.

كما قد يكون السبب الذي حرّك بعض السياسيين لتبييض مواقفهم السابقة وعداواتهم مع الرئيس الراحل. ولكن في كل الأحوال الوفاة خلطت أوراقا كثيرة تحضيرا للسباق الانتخابي.

وثمة من يقول إن وفاة السبسي وإرثه السياسي تركا سقفا عاليا أمام المتنافسين على خلافته، ليتحول إلى محك نجح حتى الآن في أن يتلاعب بأسهم السياسيين الذين بدوا حتى وقت قريب أقرب ما يكون إلى كرسي الرئاسة ويرفع من أسهم آخرين ظلوا متوارين عن الأنظار.

وما يحصل اليوم يبدو متماهيا مع تلك المعادلة: تراجعت أسهم الرجل الأول في قصر القصبة (الحكومة) بينما صعدت شعبية وزير الدفاع عبدالكريم الزبيدي، الرجل الذي ظل قريبا من السبسي في أحلك أيام مرضه وظهر معه في آخر نشاط رئاسي قبل أيام من الوداع الأخير.

شعبية وزير الدفاع عبدالكريم الزبيدي في تصاعد

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk